

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الأول - ربيع ١٣٩٠ ش / آذار ٢٠١١ م

الخصائص الفنية لشعر ابن نباتة الشاكي

حامد صدقي*

رحمت اله حيدري منش**

الملخص

يعدّ ابن نباتة المصري من أشهر شعراء العصر المملوكي، ويمكن القول بأنّه شكّا في شعره من قضايا مختلفة أكثر بالنسبة إلى معاصريه. فتناول في شعره الشاكي موضوعات مثل الدهر، والموت، والفراق، والفقر، والشيب، والأمراض الشائعة في بيئته. ولكن المهمّ الذي تركز عليه هذه المقالة هو التفات ابن نباتة إلى خصائص فنية قد ساعدته في بيان شكواه وفي التعبير الأدقّ عن آلامه النفسية. من أهمّ هذه الخصائص، يمكننا الإشارة إلى استخدام الشاعر للمفردات، والتراكيب، والأساليب، والمعجم الإيقاعي الملائم مع جو الشكوى الحزين.

الكلمات الدلالية: الشكوى، الخصائص الفنيّة، المعجم الشعري، التراكيب، الأسلوب، المعجم الإيقاعي، ابن نباتة.

**. أستاذ بجامعة تربيت معلم في طهران.

**. خريج جامعة تربيت معلم في طهران.

sedqi_1324@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٢/٢١ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٢/١٤ هـ. ش

المقدمة

اللغة الشعرية وعاء، وإطار محفوف بالدقة، يشتمل على علاقات خاصة، تتميز بالترابط القوي في جلب المترادفات، وانتقاء المواد وتوظيفها، ومستوى الكلمات مصحوبة بدلالاتها الوضعية. والعمل الشعري في حقيقته تأليف بين اللغة باعتبارها أصواتا وصورا وتكليفا بما تعالج، وتناغما مع نبضة القلب، بالإضافة إلى كونها في المقام الأول فكرا وبالتالي كشفا لأمر لا بد منه. (بدوي، ١٩٤٨م: ٥)

والمادة الشعرية التي تستند عليها هذه الدراسة، مادة الشكوى التي شعر بها ابن نباتة، والحمولة التي كان يحشو بها مضامينه، والخطاب الذي يبثه في ديوانه، مناجيا بالصور الحزينة ومستجيبا لنداءات الذات المتعبّة.

«إذ كان التعبير الشعري يجسّم التجربة النفسية للشاعر على هيئة معينة تتم عن أسلوبه وطريقه في التعامل مع العربية ومنتها، فليس عليه إلا أن يحقّق مفهوم الصدق الفني، حتّى يمكن للمتذوّق لشعره أن يشاطره انفعالاته وتخيلاته، وحتّى يتشارك في الغاية بالمتعة الفنية، ولا يشترط في المتذوّق، مادام قد أحس بالشاعر، وتمتّع روحيا، أن يكابد تفهّم الشعر فهما منطقيا أو دقيقا مبرّرا، إذ إنّ طبيعة الشعر الإيهام والإيحاء والرمز، لا الإفصاح والتعيين. إنّه فنّ غامض تُدثره غمامات وسحب، وإنّما حسب المتذوّق أن يستشعر معانيه وموسيقاه، ويعتصر منه المتعة الروحية.» (درديري، ١٩٨٣م: ١٧٣)

ولعلّ ما يميز شعر الشكوى عند ابن نباتة المصري، هو تلك اللغة التي تتسم بالجزالة، والفخامة والعبارة التي تمتلئ بالدلالة على ما صنعت من أجله، فتكون في مكانها الذي يشي بالقوة اللفظية. ورغم ما يحز من عنف الشكوى، ومرارة الألم لم يشغل شاعرنا عن اختيار لغته، وانتخاب معجمه، واصطفاء أساليبه، بحيث لم يثنيه الجو القلق المتوتّر من تأليف لفظه، وبراعة معناه. وهذا يسوقنا إلى دراسة ومراجعة هذا الشعر، ومدى مطابقتها لما ذكر، من خلال خصائصه الفنية مثل:

١. المعجم الشعري

إنّ من أعمق ما يميز شاعرا عن آخر ذلك الإحساس اللفظي، الذي يتّصف به الشعراء عامة، ويعطى شعرهم صبغة تميّزه عن الكلام العادي. ونظرية المعجم الشعري للشاعر: هي «نوع اللغة المناسبة للشعر والرّخص المسموح بها، ومعجم كاتب أو أديب مجموعة من الألفاظ التي تشيع في قلمه ويستعملها في التعبير عن أفكاره، والمعروف أنّ ثروة كلّ كاتب تختلف عن ثروة زميله كمية ونوعية، حسب ثقافة كلّ منهما والمناهل التي استقيا منها وسائل الإبانة.» (التونجي، ١٩٩٢م: ٥٥)

«واللغة الشعرية تتسم بالتواتر المستمرّ بين القديم والجديد، والثابت والمتغير من طرائق الألفاظ وقوالب الصياغة. ممّا يضع أمام الشاعر خيارات شتى من أعراف اللسان، ودلالة الكلمة. وهو أمام هذا الحصاد المعرفي والمذخور اللفظي تعامل وفق ذائقته وإحساسه، ويعكس وعيه الشعري، وخاصّة أمام العرض الذي هو بصدده.» (طه بدر، لاتا: ١٣٠)

فقد كان ابن نباتة، على حظّ كبير من الثقافة اللغوية، وعالما بغريبها ومأنوسها، كما كان متضلعا من الألفاظ المستحدثة والتراكيب المولدة التي عرفها أبناء عصره. وتتسم ألفاظه بالرقّة والجزالة وحسن السبك، وها هو يقول مصرحا:

كَانَتْ لِلْفِظَى رِقَّةٌ ضَنَّ الزَّمَانُ بِمَا اسْتَحَقَّتْ
فَصَرَفْتُهَا عَنْ قُدْرَتِي وَقَطَعْتُهَا مِنْ حَيْثُ رَقَّتْ

(ابن نباتة، لاتا: ٣١٦)

«هو إذا معروف ومشهور بين أبناء عصره بالرقّة والدقّة، والعذوبة والحلاوة، وهذه النوع الأربعة هي ما اصطلح على تسميتها بالانسجام النباتي.» (باشا، لاتا: ٤٥٠)

ومعجم ابن نباتة في شعره الشاكي، يشي ويفيض بألفاظ التعب والأسف والشكوى، وتداول فيه ألفاظ كثيرة، منها: (البين - الشكوى - الأسى - السهاد - البعاد - البكاء - الزمان - الصبابة - الدمع - النأي - الهجر - الشوق - الشيب - الفقر - الهموم - الأنكاد - الدهر - الأيام - الليلي - الشجن - اللهف - الجفا - الضنى - الفراق -

الْحَزَنُ - الْآهَ - الرَّدَى - الْمَوْتُ - السَّقَامُ - الْجَرْحُ - الطَّاعُونَ - الزَّكَامُ - الْجَزَعُ).
 هذه الألفاظ ونظائرها تعطي صورة جلية واضحة عن تدفق الألم والحزن وعمق
 الشكوى، بغض النظر عن سياقها في الكلام، فنشعر ابن نباتة طافح بهذه الألفاظ ممّا
 ترسم للقارئ صورة نفسه الأليمة المكتئبة في سياق قصائده ومقطوعاته الشاكية، ومنها
 كلمة اللفهف، والتي تعطي معنى التحسر والحزن إثر فقد عزيز أو حبيب للإنسان، وذلك
 مثل قول الشاعر:

فلهفنى على دنيا العفاة تنكّرت ولهفنى على ربيع السماحة اقفرا
 ولهفنى على بيت السعادة والتقى ولهفنى على حى القراءة والقرى

(ابن نباتة، لاتا: ٢٢٤)

نراه يكرّر لفظة اللفهف، أربع مرات وهو يرثى القاضي تاج الدين ابن الزيات، كما
 يكرّرها عشر مرّات في مطالع أبيات قصيدة يرثى فيها الملك المؤيد. يكثر الشاعر من
 استعمال هذه الكلمة ممّا يبلغ استعماله لها إحدى عشرة مرّة في شعره الشاكى، ولعلّ
 التكرار في ألفاظ أبرز ظاهرة ميزتها، وليس ذلك يراجع ضعف الأسلوب وإنما هو في
 الواقع يرجع إلى نفسية الشاعر المفجوعة.

ويكرّر كلمة صبّ، إلى جانب كلمات مثل الأحباب، البعد، القرب، الدمع، ممّا يصوّر
 حاله الحزينة إثر فراقه عن الوطن، فيقول:

صَبَّ إِلَى أَحْبَابِهِ مَا سَلَا بِإِلَهِ فِي بُعْدٍ وَلَا قُرْبِ
 صَبَّ عَلَيْهِ الدَّمْعُ هَتَانَهُ فَيَا لَهُ صَبَّ عَلَى صَبِّ

(المصدر نفسه: ٥٨)

ومن ميزات معجم ابن نباتة الشعرى، اختياره لمفردات ترسم تلك المعاناة التي أرقت
 الشاعر، وذلك نراه حيث يصيح شاكيا فقره:

لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عُمْرٍ عَجِيبٍ أَقْضَى فِيهِ بِالْأَنْكَادِ وَقْتِي
 مِنَ الْأَوْلَادِ خَمْسٌ، حَوْلَ أُمَّ فَوَا حَرْبَاهُ مِنْ خَمْسٍ وَسِتِّ

(المصدر نفسه: ٨٠)

«فاستخدم الشاعر لصيغة أفضى المشددة، تعطى لنا طبيعة قضاء الشاعر للأوقات وهي طبيعة اضطرارية، فقد كان يقضيها على مضض. وكذلك صيغة الجمع في الأناكاد، التي تظلل أوقاته كلها باللون الأسود، ثم استخدام فوا حربه، مما يزيد اللون ظلمة وقيامه أكثر.» (أنس، ١٤٣٠ ق: ٢٢٣)

ومن روائع اختياره، استخدام لفظ ميت، بدلا من ميت، التي تعنى الموت الفعلى بسبب الفقر. (نفس المصدر: ٢٢٩)

يا صاحب السرّ وفي ذكره
للمسك سرّ غير مکتوم
عظفاً على ميت من الفقر قد
أصبح فى حالة مرحوم

(ابن نباتة، لاتا: ٤٥٧)

ويتجاوز الشاعر فرديته فيوسع الدائرة؛ رغبة في الاستشفاء وتخفيفا من الآلام، فراه يتكئ على مفردات الطبيعة وقيم حوارا معها، ممثلة في الناعورة، والقضيب، والحمامة. يقول:

وناعورة كانت قضيبياً فأصبحت
إلى القضب شوقاً كالحمامة تسجع
شكوت لها ضرّ الغرام وحالها
كحالي بكاءً أو حنيناً يرجع

(ابن نباتة، لاتا: ٣١٥)

ومثل ذلك قوله:

شكوت إلى سفح النقا طول نايكم
ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة
وسفح النقا بالنأي مثلى مروء
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(المصدر نفسه: ٢٩٥)

لايكتفى الشاعر بهذا النوع في اختيار المفردات، بل يختار مفردته حتى من خلال نوعية الحروف وجوها في إعطاء صورة نفسه الحزينة، فراه يعتمد على اختيار الأصوات الرخوة أو الاحتكاكية مثل السين، والصاد، وذلك مثل قوله:

سلام على عهد الصباية والصبا
سلام بعيد الدار لا غرو إن صبا

(المصدر نفسه: ٤٩)

وأيضاً يعتمد على اختيار الأصوات الانفجارية، مثل الباء، إلى جانب تكراره للفظة الصبّ، ممّا يَصوّرُ حزنه وغضبه النفسى الناتجين عن البعاد، فيقول:

صَبُّ إِلَى أَحِبَابِهِ مَا سَلَا بِإِلَّهِ فِي بُعْدٍ وَلَا قُرْبٍ
صَبُّ عَلَيْهِ الدَّمْعُ هَتَانَهُ فَيَالَهُ صَبُّ عَلَى صَبِّ

(المصدر نفسه: ٥٨)

فكرّر الشاعر حرف الباء الانفجارية تسع مرّات، كما كرّر لفظة الصبّ أربع مرات، وليس هذا التكرار إلا لترسيم جو الحزن والغضب.

وهكذا وجدنا ابن نباتة يوائم بين المفردات خدمة لشعره الشاكى، فاستطاع أن يعبر خلال هذا الاستخدام، ما يعتمل في نوازع نفسه وهو اجس ألمه تعبيرا حيا صادقا، ويرسم واقع حاله الحزين.

٢. التراكيب

قد عُنى ابن نباتة بخصائص شتّى لتراكيبه في شعره الشاكى، فإنّه يعتقد بدور التراكيب الهامّة في السياق الشعرى ولتكميل رسالة الشاعر، يحاول أن يختار من التراكيب ما تردّ إلى لغة شعره تلك الحياة التي كانت عليها. ومن أهمّ خصائص شعره الشاكى:

٢. ١. الاستفهام:

ومن هذا السياق استطاع الشاعر أن يَصوّرُ حزنه ويعبر عن همومه، إذ نراه يكثر من الاستفهام، في شعره الشاكى، وخاصة في شكوى الفراق، ومن ذلك قوله:

وَهَلْ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ زُورَةٌ لِشَجِّ بِسَائِلٍ مِنْ دُمُوعِ الشُّوقِ مِلْحَاحٍ
وَهَلْ أَبَاكَرُ بَحْرِ النَّيْلِ مُشْرِحًا فَأَشْرَبَ الحُلُوْ مِنْ أَكْوَابِ مَلَّاحٍ

(المصدر نفسه: ١٠٦)

وأيضاً قوله:

أَيْنَ سِهَامُ العَيْشِ مَقْسُومَةٌ وَأَيْنَ فِي الأَلْفَاظِ تَسْهِيمِي
وَأَيْنَ أَوْطَانُ الغِنَى وَالْهِنَا وَأَيْنَ إِقْدَامِي وَتَقْدِيمِي

وأين لا أين بلى أشرفت نجوم سعدى قبل تنجيمي

(المصدر نفسه: ٤٥٥)

ومن استفهاماته بكيف، والتي تعنى دوام الاستفهام، قوله فى شكوى موت زوجته:

وكيف أعانى سَجْعَةً أو قَرِينَةً وقد فَقَدْتُ مَنِّى أَجَلَ القَرَائِنِ

(المصدر نفسه: ٥١٤)

٢.٢. النفي والاستدراك، منها قوله فى شكوى صدود الحبيب:

خَضِبْتُ مَشِيْبِي بِالذُّمُوعِ فَمَا بِهِ وَلَكِنْ بِقَلْبِي لِلْهُمُومِ نُصُولُ

(المصدر نفسه: ٤١٨)

٢.٣. التمنى:

يقول الشاعر متمنيا، فى شكوى الصديق:

كَمْ أَقَاسِي مِنَ الغَرَامِ وَأَخْفَى عَن وُشَاتِي صَبَابَةً وَغَلِيلاً
آه يَا وَيْلَتَى وَيَا لَيْتَ أَنِّي كُنْتُ لَمْ أَتَخِذْ فَلَانَا خَلِيلاً

(المصدر نفسه: ٥٦٠)

وأيضاً يقول فى شكوى الصدود:

لَيْتَ شِعْرَى أَهْكَذَا كُلُّ صَبٍّ أَمْ كَذَا حَالُ حَظِّي المَقْسُومِ

(المصدر نفسه: ٤٤٧)

فالشاعر لا يجد لطلب المحال شيئاً إلا التمنى بليت، وليت كما نعلم تتعلق بطلب المستحيل غالباً.

٢.٤. استخدام الجمل القصيرة، مثل قوله:

أَشْكَو لِفَضْلِكَ حَرْفَةً مَالِي بِهَا مُسْتَمْتَعٌ
أَحْوَالِي مَعْلُومٌ تَسُو ءُ وَصَاحِبٌ لَا يَنْفَعُ

(المصدر نفسه: ٣١٩)

أو قوله:

رَجُلِي وَحَالِي لِغَيْرِ نَافِعٍ أَصْبَحَ هَذَا لِذَا يَخَالِفُ

الرَّجُلُ طَوَلَ النَّهَارَ تَمْشَى والحالُ طَوَلَ النَّهَارِ واقِفُ

(المصدر نفسه: ٣٣٥)

فالشاعر يستخدم هذه الجمل القصيرة ويصوغها من مجزوء البحور الشعرية، لكي يعبر عن نفسه المتألّمة ويساير شعره لضيق صدره المعنى وكأنّ الشكوى هي التي تتكلم.

٥. ٢. المحاورّة مع النفس:

تندفق التراكيب عندما تمتزج الشكوى باليأس أو بالغضب، فيتحوّل الخطاب إلى

المحاورّة مع النفس، فيقول:

أقولُ لِقَلْبِي العانى تَصَبَّرُ وإنْ بَعْدَ المُساعدِ والحَبِيبُ
عسى الهَمُّ الَّذى أُمسِيتُ فيه يكونُ وِراءَهُ فَرَجٌ قَريبُ

(المصدر نفسه: ٤١)

وأيضاً قوله فى شكوى الزمان:

يا ابن نباتة جَارَ الزمانُ وُزِلْتُ وَزالَتْ قُوَى هِمَّتِكَ

(المصدر نفسه: ٨٠)

٦. ٢. البداية بالمصدر المحذوف فعله، مثل قوله:

يا صاحِبَ السِرِّ وفى ذِكره لِلْمسكِ سِرٌّ غيرُ مَكْتومِ
عُظْفاً على مِيتِ مِنَ الفَقْرِ قَدْ أَصْبَحَ فى حَالَةٍ مَرْحومِ

(المصدر نفسه: ٤٥٧)

فالبداية بالمصدر المحذوف فعله: عظفاً، قد عكست حالة الشاعر المرزبة الحزينة.

(أنس، لاتا: ٢٢٩)

٧. ٢. الشكوى الذاتية، المشتملة على صيغة المتكلم، فهي ترسم حالة نفسه الحزينة

الشّاكية، وبما أنّ عرض كلّ الشواهد الشعرية، لهذه السمة، يطلب مجالا أوسع نكتفى ببعض منها:

أشكو إلى الله لا إلى أحدٍ

(ابن نباتة، لاتا: ١٦٨)

أشكو إلى الله ما أقاسى

.....

(المصدر نفسه: ٥٣٣)

إلى الله أشكو يوم فقدك

.....

(المصدر نفسه: ٤٠٨)

ومن مظاهر شكوى الشاعر الذاتية، استعماله لياء المتكلم، منها قوله:

لا عارَ في أدبي إن لم يَنَلْ رُتَبًا وإنما العارُ في دهرى وفي بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عَجبا منى لِثروة لفظٍ وافتقارٍ يدِ

(المصدر نفسه: ١٢٥)

فتراه يكثر من استعمال الياء، حيث بلغ عددها ستّ مرات في هذين البيتين الشاكيين، وتدلّ هذه الظاهرة على احتجاج نفس الشاعر على ما تعانى منه من فقر وسوء حال.

٣. الأسلوب

يتميز أسلوب ابن نباتة في شعره الشاكي بعدة سمات، من أهمّها:

٣.١. التأثر بالقرآن الكريم: لا غرابة إن رأينا الأسلوب القرآني والآيات القرآنية تتناثر في شعره هنا وهناك، لأنّه من رجال الدّين المشهورين، ومن حفظة القرآن الكريم، يستخدم أسلوبه وألفاظه كلما سنحت له الفرصة. (باشا، لاتا: ٤٥٣) يستخدم الشاعر من القرآن الكريم في بعض الأحيان أسماء سورته، كما في قوله وهو يشكو الحرمان:

سیدی أصبحتُ مَقْرُوحَ الحَشَا وبِشَىءِ اللّحمِ فى ذا اليومِ عانِ
زُخْرُفَ الألفاظِ قد أرسلتُهُ فعسى تَمَلأُ بيتى بالدُّخانِ

(ابن نباتة، لاتا: ٥٤٤)

نراه يستخدم الزُّخْرُفَ، والدُّخانِ، وهما من أسماء السور القرآنية وجعل هذين الاسمين مناط الإبحار ومركزى الدلالة للتخليق في تجربته التي يحاول من خلالها أن يقيم توازنا مصطنعا بين الشعر واللحم.

ولم يقتصر على استخدام أسماء السور القرآنية، بل تعداها إلى الآيات الشريفة،

فاستمدّ منها كلمات وفقرات وجملات. فأدخلها بعضها صريحا أو بتغيير طفيف، كما تتلاءم مع الوزن والشطر والشعر ودليلا على ما قلنا، ما قال الشاعر في شكوى الفراق:

يا ساكني مصرَ تَبَّتْ لِلْفِرَاقِ يَدٌ قد صَيَّرَتْ بَعْدَكُمْ حُزْنِي أبا لَهَبٍ
ومُهْجَتِي فِي ضُلُوعِي مِنْ جَوَى وَضْنِي حَمَّالَةَ الْهَمِّ أَوْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

(المصدر نفسه: ٥٩)

ويقول في الشكوى من العذال:

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ عُدْلٌ قَدْ ضَمَّتْ ثَقُلَ الْمَلَامَ مَقَالِهَا وَفِعَالِهَا
يا لَيْتَ أَرْضَ الْعَاذِلِينَ تَزَلْزَلَتْ أَوْ لَيْتَهَا لَا أَخْرَجَتْ أَثْقَالَهَا

(المصدر نفسه: ٣٧٨)

٣.٢. التأثر بالحديث الشريف والسيرة النبوية: استخدم الشاعر السيرة النبوية، في بعض معانيه، ففي المدائح النبوية ذكر وتأثر بالإرهاصات التي سبقت البعثة، ولم يقتصر الأمر عليها وإنما تجاوزها إلى الأغراض الأخرى، كما يقول متأثرا بها في شكوى الصديق:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَفَوْزُ بِحَافِظٍ آيَ الْوُدِّ مِنْ هَذَا الْبَرِيدِ الْمُرَدِّ
فَيَرْفَعَ أَخْبَارَ السَّلَامِ لِمَالِكٍ وَيُسْمِعُنِي فِي الرَّدِّ أَحْمَدًا

(المصدر نفسه: ١٧١)

فذكر مالك بن أنس (رض) وأحمد بن حنبل (رض)، كما ذكرهما مرة أخرى بعد الإشارة إلى الإمام الشافعي (ره):

يا مُسْدَى النُّعْمَى الَّتِي قَدْ أَصْبَحَتْ مُسْنَدًا لِمَنْ يَشْكُو الزَّمَانَ وَمَسْنَدًا
أَحْسِنُ بِجَاهِكِ شَافِعِي يَا مَالِكَا أَرَوِي بِجُودِ يَدَيْهِ مُسْنَدَ أَحْمَدَا

(المصدر نفسه: ١٤٥)

٣.٣. استخدام المصطلحات النحوية والعروضية: «كان للشاعر منها أوفر نصيب، ولو حاولنا أن نجتمع في محل واحد ما ورد منها، لكان لنا من مجموعها هيكل كامل المباحث في النحو والصرف والعروض.» (باشا، لاتا: ٤٢٩) نكتفي باستخدامه لهذه المصطلحات في

شعر الشكوى، منها قوله:

مَا أَعْجَبَ الدَّهْرَ فِي حَالِي تَقْلِبِهِ وَضُلُّ وَصْدٌ وَتَعْرِيفٌ وَتَنْكِيرُ

(المصدر نفسه: ٢٢١)

فاستخدم الوصل، والتعريف، والتنكير، وهي من المصطلحات الصرفية. وما أجمل قوله حينما يتحدث عن عروض الدهر بدلا من عروض الشعر:

لَهْفِي عَلَيْكَ لَيْتَ قَدْ تَحَيْفَهُ عَرُوضُ دَهْرٍ فَأُضْحِي الْبَيْتُ مَنُوكَا

(المصدر نفسه: ٣٧٠)

ومثل قوله في عروض الزمان:

تَصَدَّقْ بِرِفْدٍ عَلَى السَّائِلِ نَ مَا كَانَ يُمْكِنُ رِفْدُ جَمِيلُ
وَلَا تَأْمَنَّ عَرُوضَ الزَّمَانِ فَإِنَّ الزَّمَانَ فَعُولٌ فَعُولُ

(المصدر نفسه: ٤٢٠)

٣.٤. استخدام المصطلحات الصوفيّة: يشترك الشاعر في الحديث عن الصوفيّة والمتصوفة ويتأثر أسلوبه أيضا بمعتقداتهم ومصطلحاتهم الخاصّة، يقول مستخدما بعض مصطلحاتهم في الزهد والعرفان والخرقة، ويعبر خلال ذلك عن فقره:

يَا شَيْخَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالزَّهْدِ فِي سَادَاتِ أَهْلِ الرَّفْقِ وَالرَّفْقَةِ
لِي خِرْقَةٌ ضَاعَتْ وَأَنْتَ الَّذِي تَلْبَسُ مِنْ عِرْفَانِهِ الْخِرْقَةَ

(المصدر نفسه: ٣٥٥)

٣.٥. استخدام التورية أو الرمز النباتي: قد يكون من الغريب لأوّل وهلة أن تُقرّر بأنّ ابن نباتة صاحب مذهب رمزي خاص في الشعر العربي، والصحيح أنّ المذهب الرمزي الحديث الذي ظهر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كان امتدادا للمذهب الرمزي الذي بلغ ذروته على يد ابن نباتة أمير شعراء المشرق، والواقع أنّ ابن نباتة أخذ مذهبه الرمزي عن مبادئ مدرسة القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ ق) وهو رائد المذهب الرمزي بمصر، كما أخذه عن أصول مدرسة عبد العزيز الأنصاري، وهو إمام هذه المدرسة بالشام وقد وحد شاعرنا بين هاتين المدرستين، ممّا أصبح المذهب الرمزي النباتي صورة

واضحة للوحدة الأدبية بين مصر والشام. (باشا، لاتا: ٤٤٢ و ٤٤٣)
ولم يكن غرض ابن نباتة من استخدام التورية والرمز، الإبهام واللعب بالألفاظ، إذ يتّسم شعره بالرقّة والانسجام، وإنّما كان غرضه الإيحاء الذي يستلهمه القارئ دون تكلف.

ومن التورية في شعره الشاكي، قوله في شكوى الفراق:

نَقَلَ الضَّنَى عَنْ مُهَجَّتِي	خَبَرَ الصَّبَابَةَ وَالْجَوَى
وَحَيَاتِكُمْ مَا ضَلَّ فِيَّ	نَقَلَ الْحَدِيثَ وَلَا غَوَى
أَهَاءَ عَلَى الْعَيْشِ الَّذِي	بِيدِ الْفِرَاقِ قَدْ أَنْطَوَى
مَا كَانَ أَسْرَعَ مَا انْقَضَى	وَحَصَلْتُ مِنْهُ عَلَى الْهَوَى
عَجَبًا لِمِثْلِي مَا عَلَى	نَأَى الْحَبِيبِ لَهُ قُوَى
يَقُولُ لِنَبْلِ الرَّاشِقِيِّ	نَنْ وَلَيْسَ يَقْوَى لِلنَّوَى

(ابن نباتة، لاتا: ٥٤٦)

لعلنا استطعنا تبين صور ثلاث في الأبيات السابقة، «فالأولى شَخَّصَتِ الضَّنَى الَّذِي أسقم الشاعر، فنقل عن مهجته خبر صبابته وجواه، والثانية زفرة حرّى يصعدها الشاعر على ذكرى الماضى السعيد والعيش الهنيء اللذين عبر بهما الشاعر ولقد عبّر عن سرعة انقضاء سويغات الهوى القصيرة التى طوتها الأيام من عقد الزمن. والثالثة تعيدنا لحرب جديدة، ولكنها ليست بين العاشقين، وإنما استعرت بين الشاعر والنوى، فهو يستطيع الصمود والتجلّد فى الحرب دون أن يخشى وقع نبال الراشقين، ولكنه لن يقوى على الوقوف أمام امتداد البين، وإنما يتخاذل أمام صروف النوى المتقلّبة.» (باشا، لاتا: ٤٥٤)

٦.٣. التفكّه والمزاح: كان ابن نباتة فكهاً مطبوعاً على المزاح، ومعروفاً بالعبث والدعابة بين أصدقائه، فهو يتهمّك عليهم فى كل مناسبة تعرض، أو موقف مضحك يطرأ، و«الفكاهة من أهم ما يميز المصريين، فهم مشغوفون بالنكتة على كل شخص وكلّ شىء. فلا غرو أن نرى الشاعر فكهاً فهو مصرى المنبت نبلى المنشأ والطبيعة المصرية مطبوعة أكثر من غيرها على روح الفكاهة.» (باشا، لاتا: ٣٤٠)

على كل حال لا ينسى الشاعر هذه الظاهرة حتى في شعره الشاكي، فقد بدأ بنفسه فوصف حاله وهو يشتكى:

سَادَتِي كَمْ أَشْتَكِي لِخَلِيٍّ يَتَغَمَّمُ
صِرْتُ مِنْ وَهْمِي تَيْسًا لِلْمَرَاعِي يَتَشَمَّمُ
مَا لَهُ فِي الشَّامِ مَرَعَى فَدَعَا يَتَقَمَّمُ

(ابن نباتة، لاتا: ٤٥٦)

سخر الشاعر من نفسه، وحسب أنه تيس يتشمم المراعي، لكنه لا يحظى بها، فلا حيلة له إلا أن يتقمم بعد أن افتقد عشب مرعاه. ويصور حاله في أيام شقائه، ويفلح في هذا التصوير الساخر، وهذا الوصف الدافئ، كلسانه، يقول:

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا أَقَاسَى مِنْ شِدَّةِ الْفَقْرِ وَالْهَوَانِ
أَصْبَحْتُ مِنْ ذَلَّةٍ وَعُرَى مَا فِي دَافٍ سِوَى لِسَانِي

(المصدر نفسه: ٥٣٣)

ويصف سقامه وسقام امرأته، فكأنهما في التمثيل شطرنج:

أَشْكُو السَّقَامَ وَتَشْكُو مِثْلَهُ امْرَأَتِي فَنَحْنُ فِي الْفَرَشِ وَالْأَعْضَاءِ تَرْتُجُ
نَفْسَانِ وَالْعَظْمُ فِي نَطْعٍ يَجْمَعُنَا كَأَنَّمَا نَحْنُ فِي التَّمْثِيلِ شَطْرُنُجُ

(المصدر نفسه: ٩٥)

ووفق الشاعر حقاً في رسم هذه الصور الضاحكة، فلم تفارقه هذه الطبيعة المرحية وهذه الروح الضاحكة حتى في أشد أيام بؤسه وشقائه، ولعل في ذلك ما يخفف عنه شيئاً من همومه وأحزانه التي جعلته دوماً يشكوها.

٤. المعجم الإيقاعي

إن البحث في الإيقاع، يتصل اتصالاً وطيداً بدراسة البحور العروضية، لأنها أهم خصائص المعجم الإيقاعي عند كل شاعر، فعلى هذا المنطلق ندرس بداية أهم مظاهر المعجم الإيقاعي المتصلة بالبحور العروضية في شعر ابن نباتة الشاكي، مرتكزا على أهم

سماتها عنده:

١.٤. البحور العروضية

يستخدم ابن نباتة في شعره الشاكي أكثر البحور ملائمة مع جو شعره هذا، ويعتمد على أوثقها صلة بمعانيه الشاكية، فهذه البحور هي:

التسلسل	البحر	عدد القصيدة / المقطوعة	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٣٢	٨٠	٪٢٠
٢	البسيط	٢٦	٩٠	٪٢٢,٧
٣	الكامل	٢٤	٨٦	٪٢١,٧
٤	الرجز	١٠	٣٥	٪٨,٨
٥	الخفيف	١٠	٣٠	٪٧,٦
٦	الوافر	٧	١٦	٪٤
٧	المتقارب	٤	١٠	٪٢,٥
٨	الرمل	٣	٩	٪٢,٢
٩	السريع	٣	٥	٪١,٢
١٠	المجثث	١	٣٥	٪٨,٨
١١	الهجج	١	٢	٪٠,٥
	مجموع الأبيات		٣٩٨	٪١٠٠
	مجموع القصائد و المقطوعات	١٢١		

من خلال هذا الجدول، يتضح لنا أنّ الشاعر قد اهتمّ باختيار البحور الشعرية المناسبة لجو شعره الشاكي؛ إذ نظم معظم أشعاره في هذا المضمون من البحرين الطويل والبسيط، و«هما من أكثر البحور طولاً، فالبحر الطويل يتّسع لكثير من المعاني كالفخر والحماسة والرتاء والشكوى والألم و...، والبسيط يقرب من الطويل وإن كان لا يتّسع مثله لاستيعاب المعاني الكثيرة، لكنّه يفوقه رقةً وجزالة، على كل حال، هذان البحران يعدّان بحري الجزالة والفخامة، ويحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة وثروة من الأخيطة والمعاني

الواسعة، لا تتفق لكل شاعر. « (جندی، لاتا: ١٠٢)

ومن أهم سمات المعجم الإيقاعي المرتبطة بالبحور العروضية عند الشاعر:
أ. استخدام البحور ذات التفعيلة الواحدة، كالبحر الكامل والرجز والمتقارب، وهذا
يعني أن الشاعر قد حدّد في ذهنه بوضوح النغمة العروضية التي تتلاءم وطبيعة شعره.
يقول ابن نباتة، وهو يشكو من فراق وطنه [من الكامل]:

أهلاً لمصرَ وأينَ مصرُ وكيفَ لي بديارِ مصرَ مرّاتٍ وملاعِباً

(ابن نباتة، لاتا: ٢٦)

كما يقول في شكوى الفقر [من الرّجز]:

يا سيدي دَعْوَةَ ذِي حَالَةٍ أحوالها الدهرُ وعُدوانه
ذوالفقرِ في أوطانِه نأيه وذوالغنى في النأيِ أوطانُه

(المصدر نفسه: ٤٩٩)

ويقول في شكوى الزمان [من المتقارب]:

يا ابنِ نباتة جَارَ الزَّمانُ وزُلتَ وزالَت قُوى هِمَّتِكُ
وقَد كنتَ ذا حكمةٍ وانقُضت فلا أوحش الله مِن خدَمَتِكُ

(المصدر نفسه: ٨٠)

ب. استخدام الأوزان المجزوءة، ممّا يدلّ على القلق والاضطراب في نفسية الشاعر.
على سبيل المثال يقول في شكوى الفقر [من مجزوء الرّجز]:

قُلْ لِلْفَهِيمِ النَّاصِرِ ي صائِحاً مُسْتَنْصِراً
يا صاحبي أَصْبَحْتُ حَتَّى تى في الخَطَاءِ مُعْتَرِأً

(المصدر نفسه: ٢٤١)

وأيضاً يقول في شكوى الفراق [من مجزوء الكامل]:

نَقَلَ الضَّنَاءَ عَن مُهْجَتِي خَبَرَ الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى
أهلاً على العيشِ الَّذِي بيدِ الفِراقِ قَدْ انطَوَى

(المصدر نفسه: ٥٤٦)

فوجدنا الشاعر يركز على الإيقاعات السريعة المتلاحقة التي يحققها مجزوء البحور، ممّا يعكس نبضات الشاعر المضطربة، ورغبته اللاهثة وراء تحقيق الغرض من الشكوى.

٤.٢ القوافي: للقافية دورها البارز في تأكيد المعنى باعتبارها النهاية البارزة في البيت، بحيث يصبح الصوت النغمي متوافقاً مع الألفاظ المبنوثة في بقية البيت لتنهض بغاية مفردة تتوج بإدخال القارئ إلى صميم التجربة الشعرية. (عصفور، ١٩٨٢م: ٤٠٧)

ومن حيث اختيار القوافي، فيعتمد ابن نباتة كثيراً على استخدام الحروف التي تساعده على ترسيم جو القلق والاضطراب والحزن، ويتجنّب استخدام الحروف الكريهة التي تصدم الآذان وتخدش الروح، ومن اختياراته الرائعة للقافية في شعره الشاكي، استخدامه للأصوات الانفجارية، كالدال، والقاف، والهاء، وذلك مثل قوله في شكوى الفراق:

فلا ابتَسَمَ البرقُ الذي كان بالحمى غداةَ تفرّقنا ولا فهِقَه الرَّعدُ

(ابن نباتة، لاتا: ١٣٥)

ويقول مستخدماً قافية القاف، في شكوى الفراق:

أين عيشي والشَّمْلُ فيه جميع ومرامى وما استَقَلَّ الفريقُ

(المصدر نفسه: ٣٤٤)

ويقول مستخدماً قافية الهمزة، في شكوى الليل:

ما بال ليلي لايسيرُ كأنما وَقَفْتُ كَوَاكِبُهُ مِنَ الإعياءِ

وكأنما كيوانُ في أفاقِه أعمى يسائلُ عن عصا الجوزاءِ

(المصدر نفسه: ١٨)

ويجدر بالذكر أنّ الشاعر لا ينسى استخدام الأصوات الاحتكاكية أو الرخوة، كحرف

السين الذي يلائم جو الحزن، إذ يقول في شكوى صدود حبيبته:

يا ناسياً عَهْدِي ولستُ بناسي ما النَّاسُ إنَّ عَدَلُوا عَلَيْكَ بناسِ

أضحى غرامِي فيكَ نعتاً واضحاً فَمَدَامِعِي تَجْرِي بِغَيْرِ قِياسِ

(المصدر نفسه: ٢٦٤)

وفق الشاعر في إبراز جو الحزن الموجود في هذه القصيدة وذلك عبر استخدامه لحرف السين الذي جاء تعبيراً عن ألم نفسه الحزينة، كما كرّر هذا الحرف خمس مرّات في البيت الأوّل.

وأحياناً يختتم قافية البيت بما يساعده على تصوير الشجن والمأساة، فنراه يمزج قافية الراء، وهو من الأصوات المتوسطة بين الرخوة والشدّة، بحرف الألف المد والألف، كما هو معروف له نوع من القداسة في العربية، والمدّ يعطى جانباً من الفن التشكيلي عن طريق الرسم بالحروف المتوازنة، والمعتمدة على الاستقامة والتقويس. «(بدوى، ١٩٤٨م: ٥٧) وذلك مثل قول الشاعر:

قُلْ لِلْفَهِيمِ النَّاصِرِ ي صَائِحاً مُسْتَنْصِراً

(ابن نباتة، لاتا: ٢٤١)

أليست هذه الاختيارات إلا تشكيلاً لغوياً ومعادلاً فنياً وجمالياً لحالة الشاعر المعنوية والفكرية؟ فلا عجب لشاعر مثل ابن نباتة الملقّب بأمير شعراء المشرق أن يفكر في دقائق شعره، ويخوض في أعماق كلامه حتّى يخرج منه فائزاً يعجب به القراء وسراجاً يستضيء بنوره الطلاب.

النتيجة

كما لاحظنا في هذه المقالة، قد تناول الشاعر، ابن نباتة المصري، شتى الموضوعات في شعره الشاكي. لكنّه على الرغم من هذا فلا يمنعّه جو الشكوى الحزين، من اختيار لغة شعره وجودة فنّه. فرأيناه يهتمّ بخصائص فنية مختلفة تساعده في التعبير عمّا تعتلج فيه من أحزان وهموم مبرحة لا يمكنه تشريحها إلا بلغة البوح والشكوى.

ومن هذه الخصائص:

١. المعجم الشعري: وهو مجموعة من الألفاظ التي تشيع في قلم الكاتب أو الشاعر، يستعملها في التعبير عن أفكاره، والمعروف أنّ ثروة كلّ كاتب أو أديب تختلف عن ثروة زميله كميةً ونوعيةً.

٢. التراكيب: مثل استخدام الاستفهام، النفي والاستدراك، المحاورة مع النفس، التمني، البداية بالمصدر المحذوف فعله، استخدام الجمل الصغيرة والشكوى الذاتية المشتملة على صيغة المتكلم.
٣. الأسلوب: يتميز أسلوب ابن نباتة الشاكي بسمات مثل: التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والمصطلحات النحوية والعروضية والصوفية وأيضا بالفكاهة واستخدام الرمز والتورية.
٤. المعجم الإيقاعي: فاكثرت ابن نباتة بسمات خاصة، في هذا المضمار، وهي: استخدام البحور الشعرية الأكثر ملائمة مع جو الشكوى، مثل الطويل والبسيط والكامل و... وأيضا استخدام البحور المجزوءة والبحور ذات التفعيلة الواحدة مثل الكامل والرجز. ومن حيث القافية فيعتمد كثيرا على استخدام الحروف التي تساعد على ترسيم جو الفلق والاضطراب والحزن ويتجنب استخدام الحروف الكريهة التي تصدم الآذان وتخدش الروح.

المصادر والمراجع

- باشا، عمر موسى. لاتا. ابن نباتة أمير شعراء المشرق. لاط. القاهرة: دار المعارف.
- بدوي، عبده. ١٩٤٨م. دراسات في النص الشعري في العصر العباسي. ط ٢. الرياض: دار الرفاعي.
- التونجي، محمّد. ١٩٩٢م. المتنبّي مالىء الدنيا وشاغل الناس. ط ٢. بيروت: عالم الكتاب.
- درديري، إبراهيم. ١٩٨٣م. من أساليب اللغة العربية. ط ١. جدّة: دار البلاد.
- سيد أحمد أنس، وثام محمّد. ١٤٣٠ق. الشكوى في شعر ابن نباتة. ط ١. الرياض: جامعة الملك سعود.
- طه بدر، عبد المحسن. لاتا. حول الأديب والواقع. ط ٨. القاهرة: دار المعارف.
- عصفور، جابر. ١٩٨٢م. مفهوم الشعر. لاط. بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم.
- جندي، على. لاتا. الشعراء وإنشاد الشعر. لاط. مصر: دارالمعارف.
- المصري، جمال الدّين ابن نباتة. لاتا. الديوان. لاط. بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي.